بمصر بصيرين يديه كالطفل وكذلك الأمراء والأكابر وكان
كثير الكشف لا يخطر عندي خاطر إلا ويقول قل ما عندك
وتبطل التآليف حتى فرغ وكنت إذا حصل عندي صداع حال
المطالعة له يقول ائتوا الشفا بالعلم فآتوه فيذهب الصداع
لوقته وقال لي مرة من صغري وأنا أحب طريق القوم وكان أكثر
اشتغالي بمطالعة كتبهم والنظر في أحوالهم حتى كان الناس يقولوا
هذا لا يجي منه شي في علم الشرع فلما ألفت كتاب شرح البهجة وفرغت
منه استبعد ذلك جماعة من الأقران وكتبوا على نسخة منه كتاب الأعمى
والبصير تنكيتا علي لكون رفيقي في الاشتغال كان ضريرا
وكان تأليفي له إلى أن كان فروغه في يوم الاثنين ويوم الخميس
فقط فوق سطح جامع الأزهر وكان وقتي زاهيا وظاهري بحمد
الله تعالى محفوظا وكنت مجاب الدعوة لا أدعو على أحد إلا ويستجاب
فيه الدعا فأشار علي بعض الأولياء بالتستر بالفقه وقال أستر
الطريق فإن هذا أماموه زمانها فلم أك أتظاهر بشي من أحوال القوم
إلى وقتي هذا وحكى لي يوما أمره من حين جاء إلى مصر إلى وقت
تلك الحكاية وقال أحكي لك أمري من ابتدائه إلى انتهائه به
إلى وقتنا هذا حتى تحيط به علما كأنك عاشرتني من أول عمري
فقلت له نعم فقال جئت من البلاد وأنا شاب فلم أعكف على أحد
من الخلق ولم أعلق قلبي به وكنت أجوع في الجامع كثيرا فأخرج
بالليل إلى قشر البطيخ الذي كان بجانب الميضة وغيرها فأغسله
وآكله إلى أن قيض الله لي شخصا كان يشتغل في الطواحين
فصار يتفقدني ويشتري لي ما أحتاج إليه من الكتب والكسوة
ويقول يا زكريا لا تسأل أحدا في شي ومهما تطلب جئتك به فلم

يزل

يزل كذلك سنين عديدة فلما كان ليلة من الليالي والناس نيام
جاءني وقال لي قم فقمت معه فوقف بي على سلم الوقادة الطويل وقال
لي اصعد هذا فصعدت إلى آخره فقال لي تعيش حتى تموت جميع
أقرانك وترتفع على كل من في مصر من العلماء وتصير طلبتك شيوخ
الإسلام في حياتك حين يكف بصرك فقلت لا بد لي من العمى فقال
ولا بد ثم انقطع عني فلم أره من ذلك الوقت ثم تزايد علي الحال
إلى أن عزم علي السلطان بالقضاء فأبيت وقال إن أردت
نزلت ماشيا بين يديك أقود بغلتك إلى أن أوصلك إلى بيتك
فتوليت وأعانني الله على القيام به ولكن أحسست من نفسي أني
تأخرت عن مقام الرجال فشكوت إلى بعض الرجال فقال ما تكره
إلا التقديم إن شاء الله تعالى فإن العبد إذا رأى نفسه متقدما
فهو متأخر وإن رأى نفسه متأخرا فهو متقدم فسكن روعي
وقال رضي الله عنه ما كان أحد يكلمني كما يكلمني السلطان قايتباي
كنت أحط عليه في الخطبة حتى أظن أنه ما عاد قط يكلمني فأول ما أخرج
من الصلاة يتلقاني ويقبل يدي ويقول جزاك الله عني خيرا فلم
تزل الحسدة بنا حتى وقع بيننا الوقعة فكان ما سكالي الأدب
ما كلمني كلمة تسوءني قط ولقد طلعت له مرة فأغلظت عليه القول
فاصفر لونه فتقدمت إليه وقلت والله يا مولانا إنما أفعل ذلك
معك إلا شفقة عليك وسوف تشكرني عند ربك وإني والله
لا أحب أن يكون جسمك هذا فحمة من فحم النار فصار ينتفض كالطير
وكنت أقول له أيها الملك تنبه لنفسك فقد كنت عدما فصرت
وجودا وكنت رقيقا فصرت حرا وكنت مأمورا فصرت أميرا وكنت
أميرا فصرت ملكا تجبرت ونسيت مبتداك ومنتهاك إلى آخره

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)